الرياض

الاثنين ٢٠ ذي الحجة ١٤٢٥هـ - ٣١ يناير ٢٠٠٥م - العدد ١٣٣٧٠

مؤتمر مكة الإسلامي... العمل المؤسسي أولاً!

عبدالله القفاري

استدعى خطاب سمو ولي العهد الأمير عبدالله بن عبدالعزيز في مكة المكرمة في موسم حج هذا العام، في دعوته لعقد مؤتمر إسلامي كبير في مكة المكرمة يناقش قضايا الوحدة الإسلامية والعمل المشترك.. استدعى هذا الخطاب مشهدين، الأول هي تلك الحشود الإسلامية التي جاءت من كل فج عميق تجسد ملامح الوحدة والاخوة الإسلامية وهي تتحرك على صعيد واحد.. لتحقيق هدف واحد، تحفها سكينة الإيمان واخوة الدين، ومشهد آخر تتجسد فيه حالة الفرقة والتشرذم في العالم الإسلامي.. كما استدعى هذا الخطاب تلك العلاقة بين الحشود المؤمنة التي يجمعها هدف واحد وقيادات أمة ما زالت تقصر عن بلوغ تلك الرسالة التي تتحد فيها المقاصد والغايات، على أن خطاب سمو ولي العهد لم يخل من استدعاء للأمل وتأكيد على بذرة الوحدة الكامنة في تربة العالم الإسلامي التي لا تحتاج سوى لتعهد ورعاية لمواجهة التحديات التي تعاني الأمة وما زالت من ويلاتها.

هذه الدعوة الكريمة تستدعي إعادة قراءة المشهد الإسلامي اليوم، على نحو يخرجنا من عاطفة استدعاء الوجه الإسلامي إلى مستوى البحث العميق في اشكالية المسلمين اليوم قيادة وشعوباً.

فكرة التضامن الإسلامي، ليست جديدة، وقراءة المشهد الإسلامي اليوم الذي يعيش الضعف والتضعضع والانقسام والتشرذم مشكلة تلقي بظلالها على مستقبل أمة. ودعوة سمو ولي العهد لهذا المؤتمر تقوم على تلمس هذا الواقع المرير، لكن المرحلة السابقة والحالية لم تكن فيها جوامع العمل الإسلامي تتخذ سوى من الوجه السياسي الذي تمثله منظمة المؤتمر الإسلامي كشاهد على حضور دوري لقادة حكومات الدول الإسلامية، لكنها بقيت أقل من تمثيل مصالح حقيقية لن يكون رابطها فقط الوجه الإسلامي للمجموع بقدر ما يفترض ان تكون المؤسسات الإسلامية المنبثقة عن المؤتمر هي الجامع للمصالح المشتركة والعلاقات المتينة والرؤى المستقبلية الجامعة بين المصالح المشتركة والانتماء الروحي وبدون البحث في هذا النقطة سيظل الكلام الكثير الذي يمكن ان يقال عن حالة التشرذم هو سيد الكلام لكن البحث العميق في تجسيد التكتل الإسلامي أو التضامن الإسلامي أو التعاون الإسلامي في حدوده الدنيا التي لا تصمد أمام استحقاقات مرحلة يواجه فيها هذا العالم تحديات جديدة وصعبة ومريرة.

في لحظة الاستقطاب العالمي بين معسكرين كان للوجه السياسي لفكرة التضامن الإسلامي ما يقوي من وحدة الموقف في سبيل الحد من مأزق الارتهان أو الاطماع لقوى دولية تتنازع هذا العالم.. لكن اليوم لم يعد سوى قوة وحيدة تمثل قطبية عالمية تشد الدول الإسلامية وغيرها إلى احلاف قد تكون ضارة أحياناً بالمجموع أمام قضايا استجدت ومسائل تكشف عن ضعف في بنية العالم الإسلامي الاقتصادية والسياسية والثقافية.

افهم ان هذه الدعوة الكريمة انطلقت من احساس عميق وليس جديدا بحجم المأزق التنموي والفكري والسياسي الذي يعيشه العالم الإسلامي، وان هذا العالم الذي توفرت له المعاني الروحية ومقومات التضامن أو التعاون أو التكتل أو العمل المشترك، اخفق في ان يقدم النموذج المرجو منه، وان معاناته مع مأزق التنمية والفقر والتخلف وضعف المنجز ماثلة للعيان، وقد زاده اشكالا هذا التماس اليوم بين العالم الإسلامي والغربي نتيجة لنشاط الإرهاب الذي أصبح قضية العصر، وشاغل الأمم، ومستنفرا الجهود لمواجهته.. فأحداث الحادي عشر من سبتمبر نقلت العالم الإسلام من حيز النسيان إلى حالة الادانة الجماعية الظالمة، ولم تكن الأعمال الإرهابية سوى وسيلة لاشعال خط تماس، تمثل في ادانة بعض مفكري الغرب وسياسييه للثقافة الإسلامية واحيانا تجاوزوا ذلك لما هو أبعد..

لقد ادخلت موجة الارهاب التي ضربت انحاء متفرقة من العالم، وكانت بأيدي مسلمين تبنوا أفكارا مهما قيل عن غلوها أو شذوذها أو جنوحها عن الحق أو تجاوزها لمفهوم الإسلام الذي أنزل رحمة للعالمين، فهي تمثل

شئنا أم أبينا نسقاً فكرياً خطيراً يعتمد على مصادر إسلامية مهما شذ التأويل والتفكير، ومهما جنحت للظلم ونزعت لتفجير المجتمعات.. هذه التداعيات اشغلت العالم بنا وجعلت المسلمين في موقع إذا لم يكن حد الادانة فهو موقع الشك والريبة والقلق والتحيز الظالم ضدهم.

العامل الآخر الذي يستدعي هذه الوقفة حالة استفراد القطبية العالمية ممثلة في القوة العالمية الأكبر نفوذاً وامكانات في احتواء العديد من الدول الإسلامية لتدور في فلك مصالحها ورؤاها الاستراتيجية... وحالة التنازع الدولي حول نفوذ الاستقطاب الذي تحول من ثنائية قطبية إلى احادية مهيمنة.. وما قد يترتب عليه من اضرار بمصالح كتل إسلامية أخر ى تتضرر من هذا النسق أو تقوم عليه شواهد الريبة.. وما حدث في أفغانستان أو العراق يؤكد هذا التوجه الذي دعمه الإرهاب أولاً ثم المخطط الاستراتيجي في احتواء المنطقة الإسلامية ثانياً.

اللافت في هذه الدعوة انها نقلت المؤتمر من حالة اللقاء أو التجمع السياسي الذي يضم قادة الدول والحكومات الإسلامية إلى مستوى آخر كان من المهم أن يشرك في الإعداد لأي عمل يتمحور حول السؤال الكبير حول التشرذم والتراجع وضعف العمل المشترك.

دعوة العلماء والمفكرين للقاءات تسبق المؤتمر تدرس هذا الوضع وتضع توصياتها لمواجهة تبعاته هذه نقطة جديرة بالاهتمام، لكن المهم أن يكون هناك فضاء واسع وأمين لنقل سؤال الضعف والتشرذم وضعف المنجز وتراجع المشترك من عقل سياسي إلى عقل مفكر ولن يكون لهذه اللقاءات جدوى كبير إذا لم تحاول أن تشرك المفكرين المسلمين على اختلاف رؤاهم في قراءة المشهد ومحاولة اكتشاف عقدة التراجع. ولن يكون لهذا المؤتمر كبير قيمة ما لم يقم على تصور أو اجندة عمل تتجاوز التوصيات المألوفة في التأكيد على المشترك أو الدعوة الطيبة لأخذ مبادئ الإسلام الكبرى إلى حيز التطبيق في حياة الشعوب ما لم تكن هناك أعمال مؤسسية حقيقية قادرة على مواجهة أعباء جسام كتلك.

العالم الإسلامي ليس تكوينات متشابهة تماماً، وليس كتلا متماثلة في أحوالها وظروفها ومستوى معالجة اشكالاتها الداخلية، صحيح ثمة رابط مهم، ومن المؤكد ثمة مشتركات كبيرة، لكن المشتركات الروحية لا تكفي لبناء تكتل أو تضامن حقيقي أو تنسيق فعال أو استنهاض حالة أمة. ما وجه الشبه بين ماليزيا الدولة الإسلامية الأكثر تقدماً وتطوراً واستنهاضاً لحالة إسلامية فريدة يعيش فيها العرق الصيني إلى جانب الملاوي إلى جانب الأصول الهندية في انسجام تام وتحقق معدلات اقتصادية ونمواً مطرداً بدولة إسلامية في وسط افريقيا تعاني من حرب عرقية، أو دولة إسلامية شرق أوسطية تتنازعها رياح الطائفية حد الذبح على الهوية.

تحتاج دول إسلامية كثيرة ان تدخل عصراً جديداً، وان تعيش سلماً داخلياً وحقوق مواطنة مقننة والتزام بمبادئ الإسلام الكبرى بعيداً عن الارتهان للعرق أو العصبية أو الطائفية وربما قبل الحديث عن تضامن حقيقي وجامع.

المكاشفة تحتاج إلى شجاعة في اكتشاف خلل الداخل ثم البحث عن المشتركات وهي لن تكون مشكلة كبيرة أمام هذا الحشد الروحي الذي يميز الكتل الإسلامية في افريقيا أو آسيا.. مشكلة كثير من الدول الإسلامية انها تغيب اشكالها الحقيقي في الداخل للهروب إلى اتهام الآخر باستعدائها ووضع العراقيل في وجه استنهاض مجتمعاتها. إذا تم النظر إلى هذه المشكلة وهي ذات ابعاد سياسية وثقافية واجتماعية عندها يمكن ان نقول ان ثمة أملا حقيقيا في تكتل قادم يستوعب عالما زاخرا بالامكانات، ويمكن أن يكون له دور كبير على مستوى التأثير في عالم تقوده القوة الاقتصادية والعلمية والتقنية أي الحداثة في أوضح تجلياتها ودون أن تكون مستلبة لمفاهيم أو حياة تتعارض مع مبادئ الإسلام الكبرى ومثله.لم يكن للوحدة الأوروبية ان تقوم إلا من خلال الخضوع لمبادئ وقوانين ونظم توحد علاقات المجموع وتجعل التشابه في النظم الأوروبية المنضوية تحت علم الاتحاد هو الأساس الذي قامت عليه امكانية التطور إلى مستوى الوحدة الأوروبية اليوم.

بعد هذا يمكن الحديث عن مؤسسات إسلامية، تتجاوز اليوم ما هو قائم، وهي تشكل علاقات ومصالح تصل إلى مستوى الاحساس الشعبي العام بقيمة تلك الروابط التي لا يمكن التضحية بها أو تجاوزها... وعندما توجه تلك المؤسسات لخدمة الشعوب الإسلامية وتلامس مصالحها عندها فقط نستطيع ان نتحدث عن تكتل ونظام إسلامي أكثر قدرة على طرح نفسه في مواجهة تحديات المستقبل.

إن طرح فكرة السوق الإسلامية المشتركة تبدو فكرة مغرية لأنها أكثر قدرة على الحياة والاستمرار من مشروعات إعلامية على سبيل المثال تخاطب مشاعر المسلمين لكنها لا تطعمهم خبزاً، وقس على ذلك

مشروعات مؤسسية أخرى تقوم على منافع مشتركة ومتحققة.. ومهما بدت الصعوبات ماثلة اليوم إلا ان هذا لا يمنع من التركيز على اجتراح معجزة مؤسسات قوية تنضم إليها دول إسلامية ذات امكانات كبيرة تعززها قدرتها على الوفاء بالتزاماتها مثل ماليزيا وتركيا وإيران والسعودية ومصر ودول الخليج العربية.

أرجو أن تكون العقول التي تستدعي للقاءات ما قبل المؤتمر قادرة على اكتشاف الخلل وان تتلمس بأمانة اشكالات هذا العالم الثقافية والفكرية والسياسية والاقتصادية وان تضع أجندة عمل بين يدي المؤتمر لا مجرد دعوات، وأن تكون توصيات قابلة للحياة وقابلة للتنفيذ وخارج إطار التأكيد أو التمنيات.